



جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
المجلة العلمية

**فضل خاتم الأنبياء
عن طريق إجابته من غير دعاء**

إعداد

د/ أحمد ياسين عبد المجيد عبيد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد الحادى والعشرون إصدار يونيو ٢٠٢٤م)

فضل خاتم الأنبياء عن طريق إجابته من غير دعاء

أحمد ياسين عبد المجيد عبيد

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، جامعة الأزهر، قنا، مصر.

البريد الإلكتروني: AhmedEbid.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وبعد: فإن هذا البحث الذي وسمته بـ (فضل خاتم الأنبياء عن طريق إجابته من غير دعاء)، فمن سنة الله تعالى في كونه تفضيل بعض الخلق على بعض، وجاءت هذه الدراسة لتبين فضل الرسول صلى الله عليه وسلم على غيره من البشر عموماً والأنبياء خصوصاً عن طريق ما تفضل به المولى الكريم بتلبية رغبات نبيه صاحب الخلق العظيم دون سؤال منه أو دعاء، فالله جل في علاه يستجيب دعاء من ناداه غير أنه عامل حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معاملة مختلفة عن طريق أنه تعالى أظهر فضله عليه بأنه تعالى يلبي رغباته من دون دعاء منه ﷺ، واستخدمت في هذا البحث عدة مناهج وهي: المنهج الاستقرائي، والوصفي، والاستنباطي، والمقارن، لبيان مكانة النبي ﷺ عند ربه من خلال كتابه الكريم، ورتبت تلك الفضائل وفق ترتيب المصحف الشريف، ويهدف البحث إلى إظهار محبة الله تعالى لرسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك من خلال ما

تفضل به المولى الكريم على الصادق الأمين، وتكون البحث من مقدمة اشتملت على أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، والخطة المتبعة فيه، وتمهيد اشتمل على: التفضيل سنة الله في خلقه، وبيان فضل الله على نبيه، ودرء ما يوهم التعارض في هذا الشأن، وفضل الدعاء، وسبعة مباحث ظهر فيها فضل النبي الكريم ومحبة الله له وهي: توجيهه ﷺ إلى قبلة أبيه إبراهيم، ورجوعه إلى مكة منتصراً بعد خروجه منها، ورؤيته لله تعالى بعينه، ونفي الخزي عنه ﷺ، وتيسير أمره، وشرح صدره، ورفع ذكره بين الأولين والآخرين، وخاتمة، وفهارس.

الكلمات المفتاحية: فضل، خاتم، الأنبياء، إجابته، دعاء.

**Title: Fadl Khatim al-Anbiyaa an tariq igabatihe
Min Ghayr Duaa.**

Ahmed Yassin Abdul Majeed Obeid

Department of Tafsir and Quranic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Al-Azhar University, Qena, Egypt

Email: *AhmedEbid.4119@azhar.edu.eg*

Abstract:

Praise be to Allah, the Lord of all worlds, praise be to Him for His blessings and rewards. Peace and blessings be upon the noblest of prophets and the master of messengers, our Prophet Muhammad, his family, his companions, and all of them. This research explores Allah's Sunnah in preferring some of His creation over others. The study aims to elucidate the virtue of the Prophet (peace be upon him) over other human beings in general, and the prophets in particular, through what the Generous Lord granted by fulfilling the desires of His Prophet, the possessor of great character, without him asking or invoking. Allah, Exalted is He, answers the supplication of those who call upon Him, yet He treats His beloved, our Prophet Muhammad (peace be upon him), differently, manifesting His favor upon him by fulfilling his desires without his invocation.

This research employs several methodologies including inductive, descriptive, deductive, and comparative approaches to illustrate the Prophet's status with his Lord through the Quran, arranging these virtues according to the order of the Noble Quran. The research aims to demonstrate Allah's love for His Messenger, the Seal of Prophets and Messengers, through what the Generous Lord has favored upon the truthful, trustworthy one.

The research includes an introduction covering the reasons for choosing the topic, previous studies, research methodology, and the plan followed, with a preface discussing: Allah's Sunnah in His creation, elucidating Allah's favor upon His Prophet, dispelling apparent contradictions in this matter, the virtue of supplication, and seven chapters demonstrating the noble Prophet's virtue and Allah's

love for him, including: his direction towards his father Ibrahim's qiblah, his victorious return to Mecca after leaving it, his vision of Allah Most High with his own eyes, the removal of disgrace from him, the facilitation of his affairs, the expansion of his chest, the elevation of his mention among the former and latter generations, and conclusion and indexes.

Keywords: *Fadl ,Khatim, al-Anbiyaa, igabatihe Duaa.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي فضل رسوله على غيره من الأنبياء والبشر، والصلاة والسلام على من فاق نوره الشمس والقمر، وعلى آله وصحبه الذين ذاع صيتهم بين الأرجاء وانتشر. وبعد ،،،

فقضت سنة الله في كونه تفضيل بعض خلقه على بعض بما حبا كلاً منهم من واسع العطايا والمنن، والمتدبر آيات القرآن الكريم يجد فيها ما تفضل به الله ﷺ على جميع خلقه، فهو جل في علاه واسع النعم، ومن بين تلك النعم ما تفضل به على عباده من إجابة الدعاء كما قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، واستجابة لهذا الأمر الإلهي لجأ العباد إليه واستعانوا به في قضاء حوائجهم، ومن بين هؤلاء العباد الذين لجأوا إليه من اصطفاهم الله لتبليغ وحيه وهم الأنبياء والرسل، لكن الحق المبين أسبغ فضله على الصادق الأمين فظهر من آياته البينات أنه تعالى استجاب لرغبات حبيبه ﷺ من غير دعاء منه ﷺ؛ بل كانت المحبة والاشتياق للشيء كفيلة لتلبية رغباته من غير أن يلفظ بما في قلبه من مطالب، فظهر بذلك فضل خاتم الأنبياء والرسل على غيره من الخلق، وإبرازاً لهذه المكانة العظيمة للرسول عند خالقه تعالى جاء هذا البحث تحت عنوان: (فضل خاتم الأنبياء عن طريق إجابته من غير دعاء).

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: إبراز فضائل النبي ﷺ وبيان مكانته عند خالقه تبارك وتعالى.
ثانياً: تقديم الشكر لله تعالى على نعمته العظمى ببعثة رسول الله ﷺ إلى الأمة المحمدية بعمل يثري المكتبة القرآنية حول فضائله وخصائصه ﷺ.

ثالثاً: امتثال هديه ﷺ بالبلاغ عنه، فهو عليه السلام القائل: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١)، والبلاغ يقتضي البيان والتوضيح لتلك الآيات.

الدراسات السابقة: اهتمت كتب السير والخصائص المحمدية بإبراز فضله ﷺ على سائر الخلق لكن تلك الكتب أشارت إشارات وجيزة إلى إجابة رغباته من الله تعالى بدون دعاء ودون دراسة تفسيرية لتلك الفضائل، فأحببت أن أتناول تلك الفضائل بعد عدم العثور على دراسة مستقلة لهذه الفضائل.

منهج البحث: اتبعت في هذه الدراسة عدة مناهج أهمها المنهج الاستقرائي^(٢)، الوصفي^(٣)، الاستنباطي^(٤)، وقد أضمت إليهم المقارن^(٥) عند الحاجة، وذلك عن طريق جمع الآيات التي تدل فضيلة النبي الكريم عند رب العالمين وتحليلها عن طريق الدراسة التفسيرية، ثم استخراج الفوائد واللطائف منها، وعند الحاجة أضع نصب عيني ما ورد في حق الأنبياء وما ورد في حقه ﷺ لإبراز مكانته وفضله على غيره من الخلق عموماً والأنبياء خصوصاً دون التنقيص من قدر أحد منهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، وقد جاء منهج البحث وكتابته بشكل عام على النحو الآتي:

- (١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠ ح ٣٤٦١)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.
- (٢) المنهج الاستقرائي هو: عملية ملاحظة الظواهر وتجميع البيانات عنها للتوصل إلى مبادئ عامة وعلاقات كلية. انظر: مناهج البحث العلمي للدكتور/ محمد سرحان (ص: ٧٣)
- (٣) المنهج الوصفي هو: محاولة الوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية لعناصر مشكلة أو ظاهرة قائمة للوصول إلى فهم أفضل وأدق، أو وضع السياسات والإجراءات المستقبلية الخاصة بها. انظر: المرجع السابق (ص: ٤٦)
- (٤) المنهج الاستنباطي هو: منهج أسلوبه الشرح والنظر والتفكير والتأمل والتحليل، وينتقل من الكل إلى الجزء، أو من العام إلى الخاص. انظر: المرجع السابق (ص: ٧٤)
- (٥) المنهج المقارن هو: ذلك المنهج الذي يعتمد على المقارنة في دراسة الظاهرة حيث يبرز أوجه الشبه والاختلاف فيما بين ظاهرتين أو أكثر. انظر: المرجع السابق (ص: ٧٦)

وضع عنوان مناسب للفضائل النبوية وترتيبها حسب ورودها في المصحف الشريف، ثم كتابة الآيات الواردة فيها وتخرجها في متن البحث لئلا تكثر الهوامش، ثم دراسة تلك الآيات عن طريق الاستعانة بأحاديث خاتم النبيين وأقوال العلماء والمفسرين وعزوها إلى مصادرها الأصلية، والابتداء بما ورد في حق الأنبياء السابقين ثم بما ورد في حق الصادق الأمين فبضدها تتميز الأشياء، ثم ختام الفضيلة ببيان كونها فضل وامتنان لا دعاء من النبي العدنان.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث وخاتمة وفهارس.

تكونت المقدمة من: أسباب اختيار الموضوع، الدراسات السابقة، منهج البحث، خطة البحث.

واشتمل التمهيد على: التفضيل سنة الله في خلقه، النبي الكريم يبين فضل الله عليه، درء ما يوهم التعارض بين الكتاب والسنة، فضل الدعاء. واشتمل البحث على سبعة مباحث وهي: صلاته ﷺ شطر المسجد الحرام، رجوعه ﷺ إلى مكة، رؤية الله تعالى، نفي الخزي عنه ﷺ، تيسير أمره ﷺ، شرح صدره ﷺ، رفع ذكره ﷺ.

والخاتمة اشتملت على: نتائج وتوصيات والفهارس اشتملت على: فهرس للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

أولاً: التفضيل سنة الله في خلقه

اقتضت سنة الله تعالى تفضيل بعض مخلوقاته على بعض؛ وهذا نتاج الاختلاف في الخلق، فالله تعالى جعل خلقه مختلفين، والاختلاف هو التميز عن الغير، فكل مخلوق مميز ومفضل على غيره بما أمدّه الله من خصائص لا توجد لسواه، وقد نص القرآن على فضل بني إسرائيل على غيرهم من العالمين في زمانهم كما قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة: ٤٧]، وجرت سنة الله تعالى بتفضيل الرجال على النساء بما لهم من قوامة وقيام على شئون البيت والأسرة، وذلك في قوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء: ٣٤]، كما بينّ تعالى حيثيات فضل الأمة المحمدية على غيرها من الأمم في قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، فتلك الأفضلية ليست تشريف وإنما هي تكليف بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصديق بكل ما قاله الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله، فظهر مما سبق من آيات بينات أن التفضيل ليس عبثاً؛ وإنما أدى إليه عدة عوامل تختلف باختلاف الفضل الواقع على المخلوق، فلا بد للمخلوق من رد الفضل إلى صاحب الفضل وهو الله تعالى، ودوام الشكر على نعمه تعالى وفضله.

ثانياً: النبي الكريم يبين فضل الله عليه

والاعتراف بالفضل والجميل لصاحبه من شيم الكرام أصحاب النفوس السليمة، وقد بينّ النبي ﷺ مكانته عند ربه، وما أعطاه من خصائص ميزته على إخوانه من الأنبياء، وذلك كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؓ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ، وَأُجِلَّتْ

لِي الْغَنَائِمِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ"^(١)، ففيه جواز التحدث بفضل الله على الغير إذا كان لا يؤدي إلى مفسدة، ولا يقود صاحبه إلى التفاخر والغرور، وهذا ما تعلمناه من قول المصطفى ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ"^(٢)، فالسيادة هنا من قبيل التحدث بنعم الله تعالى، ومعنى الحديث: "إني إنما أقول هذا الكلام معتداً بالنعمة، لا فخراً واستكباراً"^(٣).

ثالثاً: درء ما يوهم التعارض بين الكتاب والسنة

ورد في القرآن الكريم ثبوت التفاضل بين الرسل، وأنهم درجات عند الله تعالى وذلك في قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة: ٢٥٣]، كما ورد في مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ رِيبُورًا} [الإسراء: ٥٥]، بينما ورد عن النبي ﷺ النهي عن هذا الأمر بما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ"^(٤)، و بما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري ؓ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٥)، وبالحديث السابق عن سيادته لولد آدم، وقد عدد الإمام النووي خمسة أوجه لدفع ظاهر هذا التعارض وهي: "أحدهما: أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به، والثاني: قاله أدباً وتواضعاً، والثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧١ ح ٥٢٣)، كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٣٠٩ ح ٣١٤٨)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة بني إسرائيل، وقال: «هذا حديث حسن».

(٣) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (١/ ٣٣٧).

(٤) صحيح البخاري (٤/ ١٥٩ ح ٣٤١٤)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَأَنَّ يُؤْتَسَرَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٣٩].

(٥) صحيح مسلم، (٤/ ١٨٤٥ ح ٢٣٧٤)، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ.

تنقيص المفضول، والرابع: إنما نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو المشهور في سبب الحديث، والخامس: أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة فلا تفاضل فيها وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى". (١)

وأقول: بأنه لا شك أن الآية أثبتت التفاضل بين الأنبياء، وأن التفاضل له أسبابه وهي التكليم ورفع الدرجات فهي حيثيات تؤدي إلى التفاضل ورفع الدرجات بلا شك، وأما ما ورد من الأحاديث فأقوى ما ورد من أجوبة على هذا النهي هو التفاضل الذي يؤدي إلى ما يوهم نقص المفضول، أو النهي درءاً للفتن؛ لأن هذا الأمر قد أدى إلى الخصومة والنزاع بين أنصار الفضلاء، فقد جاء عند الإمام البخاري سبب هذا النهي "فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَغْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فَلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَى فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: "لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحْسِبُ بِصَعْفَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي". (٢)

وقد أحس المقربون منه ﷺ بفضل الله تعالى عليه فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «كُنْتُ أَعَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟» فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ} [الأحزاب: ٥١]

(١) شرح النووي على مسلم (١٥ / ٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٤ / ١٥٩ ح ٣٤١٤)، كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَنْ يُؤْتِيَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُؤْسِلِينَ} [الصافات: ١٣٩].

[الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ^(١)، ففهمت أننا عائشة رضي الله عنها من هذه الآية أن للرسول مميزات وخصائص خصه الله تعالى بها لا يشاركه فيها أحد، ومن ذلك أن الله ترك القسمة بين أزواجه له ﷺ ليفعل فيها ما يشاء من التأخير أو الضم إليه.

رابعاً: فضل الدعاء

من الأمور التي امتن الله بها على عباده إجابة الدعاء، وهو في حقيقته إظهار ضعف العبد وذلّه أمام قوة الله تعالى وعزته، وقد تكفل الله تعالى بإجابة الدعاء كما قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، فهو من العبادات التي ينبغي للعبد أن يحرص عليها وأن لا يتكبر عليها بحجة ما معه من مال أو ولد أو صحة أو عافية؛ فالذي أعطى قادر على أن يسلب، وقد بين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه منزلة تلك العبادة من بين سائر العبادات فقال ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] إِلَى قَوْلِهِ: {دَاخِرِينَ}^(٢)، فلمكانة هذه العبادة جاء التعبير بأنها هي الحقيقة التي يجب أن تسمى بالعبادة، فالأولى من العبد إظهار الافتقار إلى الملك العلام فهو الذي لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية، وسرعة الاستجابة الدال عليها حرف السين ما هي إلا إشارة إلى قربته تعالى من العبد كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

(١) صحيح البخاري (٦/ ١١٨ ح ٤٧٨٨)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ترجئ من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢١١ ح ٢٩٦٩)، كتاب تفسير القرآن، باب: وَمِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

اللجوء إلى الله بالدعاء أم الرضا بالقضاء: فالالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء لا يتناقض مع الرضا كما قال الإمام الغزالي: "الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتبته مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبته الله تعالى وأمر به" (١)، وأفضل منه الذكر كما قال ابن القيم: "الذكر ثناء على الله ﷻ بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ ولهذا جاء في الحديث: «من شغله ذكرى عن مسألتني أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (٢) ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته" (٣).

قلت: والأمر ليس على إطلاقه في الأفضلية فعموم الأمر القرآني بالأخذ بالأسباب في أمر الدعاء إنما هو للمحتاجين الطامعين، وقراءة القرآن والذكر والانشغال بهما عن الدعاء للعارفين، فالعارف من كثرة تقربه من الله انشغل به عن نفسه فلا يطلب لها ما ينقص حظها من الرضا، وعلى هذا فالأنبياء هم أولى الخلق بمعرفة الخالق فما صدر منهم من أدعية إنما هي واردة لتعليم الطامعين لا العارفين فهم الكثرة من خلق رب العالمين.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤ / ٣٥٤).

(٢) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ (٥/ ١٨٤) ح (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (ص: ٨٩).

المبحث الأول

صلاته ﷺ شطر المسجد الحرام

من الأمور العظيمة في الإسلام والتي تتجلى فيها عظمة رسول الله ﷺ، ومكانته العالية عند ربه أمر تحويل القبلة، وذلك كما قال تعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [البقرة: ١٤٤]، وقد ورد سبب النزول للآيات الواردة في تحويل القبلة بما أخرجه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب ؓ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَوْحَالِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ «صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ» فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَذَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ". (١)

ولم تذكر الآيات ولا الرواية الصحيحة المتفق عليها الآتفة الذكر أن النبي ﷺ سأل ربه في أن يتحول من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، إلا أن الإمام الطبري أخرج "عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس فرحلت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ

(١) صحيح البخاري واللفظ له، كتاب: الإيمان، باب الصلاة من الإيمان (١ / ١٧ ح ٤٠)، صحيح مسلم، كتاب: المساجد، باب تحويل القبلة (١ / ٣٧٤ ح ٥٢٥).

الصلوة، وكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله ﷻ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: ١٤٤] الآية فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: {ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} فأنزل الله ﷻ: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} (١)

كما ورد عن السيوطي أنه قال: "عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَقَالَ لَجَبْرِيلَ وَدَدْتُ أَنْ اللَّهَ صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إِلَى غَيْرِهَا فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ وَلَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا إِلَّا مَا أَمَرْتُ فَادْعِ رَبَّكَ وَسَلِّمْ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ يَدِيمَ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ رَجَاءً أَنْ يَأْتِيَهُ جَبْرِيلُ بِالَّذِي سَأَلَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} (٢)

كما علق الحافظ ابن كثير على الروايات الكثيرة الخاصة بأمر تحويل القبلة بقوله: "المقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا، وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق" (٣). ويتقوى لدي أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بأن يتحول إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام دون أن يسأل المصطفى ﷺ ذلك، وهذا للأسباب الآتية:

أولاً: التعبير بترضاها: من الأمور التي تدل على قبول طلب الحبيب من غير دعاء منه تعبير القرآن بقوله ترضاها، ولم يقل جل في علاه قبلة دعوتها، فالرضا منه لقبلة أبيه إبراهيم محبته إياها واشتياقه إليها، وفي هذا اللفظ أيضاً ما يدل على حبه لمكة مسقط رأسه، فهو ﷺ لا يريد أن يبتعد عنها بقلبه كما ابتعد عنها بجسده.

(١) جامع البيان للطبري (٣/ ١٣٩).

(٢) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٤٣)، وعزاه لأبي داود في ناسخه.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٣).

كما يدل على قبول هوى المصطفى وشوقه دون دعاء أن الله يجيب كل من سألته كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦]، وفي قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، ففيهما دلالة واضحة على استجابة الدعاء من الله العلي القدير، وعليه فأي ميزة تكون للحبيب المحبوب إذا استجيب طلباته عن طريق الدعاء، وإنما الميزة والتشريف له صلى الله على حضرته أن رغبته مجابة من دون دعاء أو نداء، وهذا ما أكد عليه الحافظ ابن حجر، فمن جملة الفوائد التي استنبطها من حديث البراء السابق قوله: "فيه بيان شرف المصطفى وكرامته على ربه لإعطائه له ما أحب من غير تصريح بالسؤال".^(١)

فالتعبير في الآية بالرضا غاية ما يدل عليه التعلق القلبي بقبلة الحرم المكي؛ ولذلك قال أبو حيان تأكيداً لهذا الأمر: "وليس في اللفظ ما يدل على أنه كان يطلب باللفظ قبلة معينة، ووصفها بأنها مرضية له لتقربها من التعيين، لأن متعلق الرضا هو القلب، وهو كان يؤثر أن تكون الكعبة، وإن كان لا يصرح بذلك".^(٢)

ثانياً: تقديم رواية الصحيح: ومما يدل على تلبية رغبته ﷺ من غير دعاء أن الرواية التي لم تذكر الدعاء، وذكرت تقلب النظر وتحويله نحو السماء رواية الإمام البخاري في صحيحه، وهي في أعلى درجات الصحة فهي تتقدم وتُرجح على الرواية التي في غيره التي صرحت بالدعاء، كما أن رواية الصحيح متصلة السند إلى الصحابي الذي أخبر عن الواقعة وعاصرها، والرواية التي ذكرها الإمام السيوطي مرسلة تنتهي إلى التابعي، ولا شك أن كلام الصحابي مقدم على التابعي، وعلى فرض صحة المراسيل أو قبولها فإن مراسيل بعض التابعين لا يُحتج بها فقد قال

(١) النكت على صحيح البخاري لابن حجر (١ / ٣٤١).

(٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٢ / ٢٣).

ابن سيرين: "حدثوا عمن شئتم يعني من المراسيل إلا عن الحسن وأبي العالية فإنهما لا يباليان عمن أخذوا الحديث" (١)، إضافة إلى أن رواية الطبري مبهمة ليس فيها نص الدعاء.

ثالثاً: الطعن في السند: الرواية التي ذكرها ابن جرير في تفسيره، والتي صرح فيها بالدعاء والسؤال عن ابن عباس قد رواها عن الصحابي الجليل علي بن أبي طلحة، وهو "لم يسمع من ابن عباس التفسير". (٢)

وبما سبق يتضح أن الله ﷻ قد لبّي رغبات وطلبات حبيبه من غير دعاء منه، وإنما تحول الحبيب من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة حباً فيها واشتياقاً لها، لا دعاء منه كما ذكرت بعض الروايات، كما تظهر الآية الكريمة كمال أدبه ﷺ مع ربه تعالى بعدم التصريح بالدعاء والاكتفاء بما تعلق في قلبه والتزامه بالتسليم لقضاء الله تعالى ففيه الخير الكثير، وليتعلم العباد أن الانشغال بالقرآن بما فيه من ذكر وثناء أفضل عند الله من الدعاء، وذلك مصداقاً لما أخرج الترمذي عن أبي سعيد، قال: قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ". (٣)

(١) جامع التحصيل في أحكام المراسيل لصلاح الدين العلائي (ص: ٧٨).

(٢) المراسيل لابن أبي حاتم (ص: ١٤٠).

(٣) سنن الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: مَا جَاءَ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ (١٨٤/٥) ح (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

المبحث الثاني

رجوعه ﷺ إلى مكة

إذا لم يجد صاحب الدعوة إلى الله المكان الخصب لأداء رسالته فعليه بالانتقال إلى مكان آخر، وهذا ما فعله خاتم الأنبياء والرسول بالهجرة من مكة إلى المدينة، فمما امتن الله به على حبيبه بعد أن آذاه قومه بكل صنوف الأذى، وأخرجوه من مسقط رأسه ما أنزله الله تعالى عليه بقوله: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [القصاص: ٨٥]، وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى الرد الوارد في الآية إلى ما يلي:

أولاً: الموت: فالمعنى أن الذي أنزل عليك القرآن ليردك إليه عن طريق الموت، وهذا الوجه ذكره المفسرون عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد.^(١)

ثانياً: القيامة: فالرد في الآية معناه عودته يوم القيامة، وهو قول ابن عباس من رواية عكرمة، وروي عن مجاهد والحسن.^(٢)

ثالثاً: الجنة: فعن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} قال: إلى معدنك من الجنة، وروي عن أبي سعيد الخدري ومجاهد في إحدى الروايات، نحو ذلك.^(٣)

رابعاً: مكة: والمعنى لرادك إلى مكان مولدك وهو مكة المكرمة، فعن مجاهد في قوله: {لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} قال: إلى مولدك بمكة، وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير وعطية، والضحاك نحو ذلك.^(٤)

(١) جامع البيان للطبري (١٩ / ٦٤٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٩ / ٣٠٢٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٩ / ٣٠٢٦).

(٣) جامع البيان للطبري (١٩ / ٦٣٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٩ / ٣٠٢٦).

(٤) جامع البيان للطبري (١٩ / ٦٤١)، تفسير ابن أبي حاتم (٩ / ٣٠٢٦).

وصوّب ابن جرير الأول والرابع بقوله: "والصواب من القول في ذلك عندي: قول من قال: لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث ولدت، وذلك أن المعاد في هذا الموضع: المفعول من العادة، ليس من العود، إلا أن يوجه موجه تأويل قوله: (لِرَادِّكَ) لمصيرك، فيتوجه حينئذ قوله: (إِلَى مَعَادٍ) إلى معنى العود، ويكون تأويله: إن الذي فرض عليك القرآن لمصيرك إلى أن تعود إلى مكة مفتوحة لك".^(١)

والأخير هو الرأي الأكثر قبولاً بين المفسرين فقد قال القرطبي: "قوله تعالى: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهراً لأعدائه، وقيل: هو بشارة له بالجنة، والأول أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم^(٢)، واستظهر ابن فورك الوجه الثالث بقوله: "والأظهر إلي أن يعود إلى النشأة الثانية إلى الجنة"^(٣)، وإنما جاز ذلك لأنه دخلها ليلة الإسراء، فالله تعالى يرده إلى الموضع الذي دخله، ويعود به إليه.^(٤) وأرجم الأقوال في هذا الاختلاف هو القول الرابع، وهو الرجوع إلى مكة، وذلك لما يلي:

أولاً: أن هذا القول هو أصح الأقوال سنداً إلى ابن عم رسول الله ﷺ حيث أخرجه البخاري في صحيحه عن عكرمة، عن ابن عباس {لرادك إلى معاد} [القصص: ٨٥] قال: «إلى مكة»^(٥)، وعلق الحافظ ابن حجر عن أسانيد الروايات الأخرى فقال: "وروى الطبري من وجه آخر عن ابن عباس قال لرادك إلى معاد قال إلى الجنة

(١) جامع البيان للطبري (١٩ / ٦٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣ / ٣٢١).

(٣) تفسير ابن فورك (١ / ٣٧٤).

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٨ / ٥٥٨٦).

(٥) صحيح البخاري (٦ / ١١٣ ح ٤٧٧٣)، كتاب تفسير القرآن، باب {إن الذي فرض عليك القرآن}.

وإسناده ضعيف، ومن وجه آخر قال إلى الموت، وأخرجه ابن أبي حاتم وإسناده لا بأس به، ومن طريق مجاهد قال: يحييك يوم القيامة، ومن وجه آخر عنه إلى مكة، وقال عبد الرزاق: قال معمر وأما الحسن والزهري فقالا هو يوم القيامة، وروى أبو يعلى من طريق أبي جعفر محمد بن علي قال: سألت أبا سعيد عن هذه الآية فقال معاده آخرته وفي إسناده جابر الجعفي وهو ضعيف^(١).

ثانياً: الرجوع إلى مكة هو قول جمهور المفسرين أو أكثرهم^(٢).

ثالثاً: ما اشتهر عند المفسرين من أسباب النزول، وهو مما يُعين على فهم الآية، فقد ذكر ابن قتيبة أن في "تفسير أبي صالح: "أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال: أتشتاق إلى مولدك ووطنك، يعني: مكة؟ قال: نعم، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: وهو فيما بين مكة والمدينة"^(٣)، وبما أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله تبارك وتعالى عليه القرآن لرداك إلى معاد إلى مكة"^(٤)، ولم يعلق الحافظ ابن كثير على هذه الرواية إلا بقوله: "وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكية، والله أعلم"^(٥) مما يدل على صحة السند عنده.

رابعاً: القول بالمعاد على أنه الموت أو الجنة أو القيامة خروج على مقتضى الظاهر وعدول عن الحقيقة فهل كان الحبيب في أي من هؤلاء حتى يعيده الله إليه؟

(١) فتح الباري لابن حجر (٨ / ٥١٠).

(٢) ينظر: تفسير السمعاني (٤ / ١٦٢)، فتح القدير للشوكاني (٤ / ٢١٧).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٣٦).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩ / ٣٠٢٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٦٠).

خامساً: تصدير الآية بالتأكيد دال على البشارة والعودة إلى وطنه بعد الخروج منه، وهذا أمر يحتاج إلى تأكيد، أما باقي الأقوال فلا حاجة للتأكيد عليها في خطاب الرسول المؤمن بالميعاد والموت والجنة وغيرها من الغيبات.

سادساً: ألفاظ الآية دالة على هذا القول فالرد هو الرجوع والمعاد هو ما تعودت المكث فيه؛ ومن خلال هذا رجح ابن قتيبة هذا الرأي فقال: "معاد الرجل: بلده، لأنه يتصرف في البلاد، ويضرب في الأرض ثم يعود إلى بلده، يقال: ردّ فلان إلى معاده، أي ردّ إلى بلده، ومثله قولهم لمنزل الرجل: مثاب ومثابة، لأنه يتصرف في حوائجه ثم يثوب إليه".^(١)

سؤال أم امتنان: بعد الانتهاء من أسباب ترجيح القول بأن المراد بالمعاد هو مكة بقي الحديث حول موضوع البحث وهو: هل كان الرجوع إلى مكة في الفتح نتيجة لسؤال منه ﷺ ودعاء، أم هو فضل وامتنان من الكريم المنان؟

فمن سبب النزول الآنف الذكر ظهر أنه اشتياق من النبي الكريم إلى بلده الأمين الذي ولد وتربى فيه، فأجابه العلي القدير دون طلب أو سؤال منه، كذلك من الروايات الذي تدل على الامتنان ما أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عديّ بن حمراء، قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزوة^(٢) فقال: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^(٣) والحديث ليس

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٤٠)

(٢) الحزوة تل صغير والجمع الحزورات. انظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٢٦٧)

(٣) سنن الترمذي (٥/ ٧٢٢ ح ٣٩٢٥)، كتاب المناقب، باب في فضل مكة، وقال: «هذا حديث

حسن صحيح غريب» وقد رواه يونس، عن الزهري، نحوه ورواه محمد بن عمرو، عن أبي

سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم «وحديث الزهري، عن أبي سلمة، عن

عبد الله بن عدي بن حمراء عندي أصح»

فيه إلا حب الله لهذا البلد، وأنه خرج ﷺ منها مضطراً، وفيه أيضاً الدلالة على جواز تعلق القلب بمسقط الرأس، وأن الآية فيها ما فيها من البشارة له ﷺ، وأنها مخبرة عن غيب لا بد له من الوقوع والتحقق، وأن الله تعالى مجيب حبيبه إلى ما اشتاق لعلمه تعالى بما في القلوب.

المبحث الثالث

رؤية الله تعالى

من الأمور الثابتة عند أهل السنة رؤيته تعالى في الجنة مصداقاً لقوله تعالى: {لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، وبما جاء في قوله تعالى: {وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ} (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} [القيامة: ٢٢-٢٣]، وبما رواه البخاري عن جرير بن عبد الله، قال: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق: ٣٩]^(١)، فهي ثابتة للمؤمنين في الآخرة، أما في الدنيا فلم يتنعم أحد بهذه الرؤية إلا المصطفى ﷺ.

وقد طلب هذا النوال من العلي الكريم نبي الله موسى الكليم، وذلك كما حكي القرآن بقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]، والسبب في هذا الطلب ما ورد في الآية السابقة أن الله تعالى قد وَقَّتَ له وحدد له ميعاداً ليلتقي به، فلما جاء الميعاد واستأنس الكليم بكلام الكريم، زاد شوقه إلى الجليل، وأراد أن يخصه الحق بمزيد من التكريم فيجمع له بين متعة الأذن والعين.

وقد زاد الطبري هذا الأمر وضوحاً بما رواه عن السدي بقوله: "إن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، أحب أن ينظر إليه قال: "رب أريني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني"، فحَفَّ حول الجبل بملائكة وحَفَّ حول الملائكة بنار، وحَفَّ حول النار بملائكة، وحَفَّ حول الملائكة بنار، ثم تجلَّى ربه

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق: ٣٩] [٦/ ١٣٩ ح ٤٨٥١].

للجبل".^(١)

والحق أن العلماء اختلفوا في رؤية الله تعالى لنبيه في الدنيا على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه ﷺ رأى ربه بعينه: وقد تزعم الحبر من قال بهذا الرأي ففي تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: ١٣] قال فيما رواه الطبراني عنه: «إن محمداً ﷺ، رأى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده»^(٢)، وجاء فيما رواه الترمذي عنه في قول الله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} [النجم: ١٤] {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ١٠] {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٩] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «قَدْ رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ»^(٣)، وفيما رواه أحمد عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت ربي تبارك وتعالى"^(٤)، وروي عنه في السنن أنه قال: «أَتَعْجَبُونَ أَنْ تَكُونَ تَكُونُ الْخَلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَالْكَلَامُ لِمُوسَى، وَالرُّؤْيَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ»^(٥)، كما ثبت على رأيه حين راجعه الصحابة في هذه المسألة وأثبت الرؤية له ﷺ ومن ذلك "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، بَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟

(١) جامع البيان للطبري (١٣ / ٩٠).

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٦ / ٥٠)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات". انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١ / ٧٩).

(٣) سنن الترمذي (٥ / ٣٩٥ ح ٣٢٨٠)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».

(٤) مسند أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس (٤ / ٣٥٠ ح ٢٥٨٠)، وقال الهيثمي: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح" انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١ / ٧٨).

(٥) السنن الكبرى للنسائي، كتاب التفسير، قَوْلُهُ تَعَالَى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: ١١] (١٠ / ٢٧٦ ح ١١٤٧٥)، المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النجم (١ / ٣٣٣ ح ٣٧٤٧)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: أَنْ نَعَمْ فَرَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَسُولُهُ أَنْ كَيْفَ رَأَاهُ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ «رَأَاهُ فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ دُونَهُ فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ تَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكٌ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَمَلَكٌ فِي صُورَةِ ثَوْرٍ، وَمَلَكٌ فِي صُورَةِ نَسْرٍ، وَمَلَكٌ فِي صُورَةِ أَسَدٍ».^(١)

كما احتج أصحاب هذا القول بما رواه اللالكائي أَنَّ مَرْوَانَ، سَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ قَدْ رَأَاهُ»^(٢)، وبما روي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ»^(٣)، كما احتجوا بقسم الحسن البصري في رؤيته ﷺ لربه بما رواه ابن خزيمة عَنِ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ، قَالَ: «كَانَ الْحَسَنُ يَخْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ»^(٤)، وبما أخرج الطبري عن عباد بن منصور، قال: سألت عكرمة، عن قوله: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) قال: أتريد أن أقول لك قد رآه، نعم قد رآه، ثم قد رآه، ثم قد

(١) التوحيد لابن خزيمة، باب ذَكَرَ الْأَخْبَارِ الْمَأْثُورَةَ فِي إِثْبَاتِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ خَالِقَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٢/ ٤٨٣)، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: "هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَقَدْ كَذَّبَهُ مَالِكٌ وَهَشَامُ بْنُ عُرْوَةَ". العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ٢٤)، وقال البيهقي: "لفظ حديث يعلى زاد يونس في روايته: في صورة رجل شاب. قلت فهذا حديث تفرد به محمد بن إسحاق بن يسار، وقد مضى الكلام في ضعف ما يرويه إذا لم يبين سماعه فيه، وفي هذه الرواية انقطاع بين ابن عباس رضي الله عنهما وبين الراوي عنه، وليس شيء من هذه الألفاظ في الروايات الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي من وجه آخر ضعيف". انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٦٢) قلت: ولعل من ضعف قصد الكيفية فالروية ثبتت بالرواية عنه كما سبق.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لهبة الله بن زيد اللالكائي (٣/ ٥٧١).

(٣) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٤٨٧)، وإسناده قوي كما جاء في فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٠٨).

(٤) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٤٨٨).

رآه حتى ينقطع النفس" (١)، كما روي عن كعب قال: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيَيْتَهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَأَاهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ، وَكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ». (٢)

وذكر الحافظ ابن حجر من ذهب إلى هذا القول من الصحابة والتابعين بقوله: "وبه قال سائر أصحاب ابن عباس وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه" (٣)، والقول بأنه ﷺ رأى ربه هو قول جماعة المفسرين كما نص على ذلك البغوي فقد قال في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: ١٣] "ذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، قالوا: رأى محمد ربه" (٤)، وبمثله قال الواحدي: "ومذهب جماعة من المفسرين أنه رآه بعينه". (٥)

وممن اختار هذا القول الإمام النووي فقد قال بعد أن ذكر أقوال العلماء في المسألة: "الحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء إن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسمع من رسول الله ﷺ". (٦)

القول الثاني: إنكار الرؤية: وذهب جماعة من العلماء إلى إنكار الرؤية بما عندهم من ظاهر الآيات القرآنية، واستند أصحاب هذا الرأي إلى ما رواه البخاري عن مسروق، قال: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟

(١) جامع البيان للطبري (٢٢ / ٥٠٧).

(٢) سنن الترمذي كتاب التفسير، باب سورة النجم (٥ / ٣٩٤ ح ٣٢٧٨)، التوحيد لابن خزيمة (٢ / ٤٩٦).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨ / ٦٠٨).

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٤ / ٣٠٤).

(٥) التفسير البسيط للواحدي (٢١ / ٢٣).

(٦) شرح النووي على مسلم (٣ / ٥).

فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ، مَنْ حَدَّثَكُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣]، {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى: ٥١]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا} [لقمان: ٣٤]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧] الْآيَةَ وَلَكِنَّهُ «رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ»^(١)، وَقَدْ أَجَابَ الْعُلَمَاءُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِمَا يَلِي:

قال النووي: "هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم إن عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات"^(٢)، كما أجاب القرطبي عن ظاهر الآيات التي استدلت بها أم المؤمنين بقوله: "أما استدلال عائشة بقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣] ففيه بُعد؛ إذ قد يقال بموجبه، إذ يفرق بين الإدراك والإبصار، فيكون معنى لا تدركه لا تحيط به، مع أنها تبصره، قاله سعيد بن المسيب، وقد بقي الإدراك مع وجود الرؤية في قول الله تعالى: {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} (٦١) قَالَ كَلَّا} [الشعراء: ٦١: ٦٢]؛ أي: لا يدركونكم، وأيضًا فإن الإبصار عموم وهو قابل للتخصيص، فيخصص بالكافرين، كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥] ويكرم المؤمنون أو من شاء الله منهم بالرؤية، كما قال تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} [القيامة: ٢٢: ٢٣] وبالجمله فالآية ليست نصاً ولا من الظواهر

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: {وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [لق: ٣٩] (٦/ ١٤٠ ح ٤٨٥٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣/ ٥).

الجلية، فلا حجة فيها".^(١)

ومما استدل به أصحاب هذا القول ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه».^(٢)

وقد رد أصحاب القول الأول على هذا الدليل بما قال أبو خزيمة: "في القلب من صحة سند هذا الخبر شيء، لم أر أحدا من أصحابنا من علماء أهل الآثار فطن لعله في إسناد هذا الخبر، فإن عبد الله بن شقيق، كأنه لم يكن يثبت أبا ذر، ولا يعرفه بعينه واسمه ونسبه"^(٣)، وقال الإمام أحمد عن هذا الحديث: "ما زلت له منكراً وما أدري ما وجهه".^(٤)

قلت: وإنكار هذه الأقوال بالنظر إلى السند في غاية العجب، فإن حديث الصحابي أبي ذر في كتاب قد أجمعت الأمة على صحته، كما أن إنكار الإمام أحمد لا دليل عليه حيث لم يبين وجه إنكاره له كما سبق.

وقيل إن امتناع الرؤية كما ورد عنه ﷺ كانت في بداية البعثة، فقد قال ابن الجوزي في تأويل الحديث: "قلت: فنجيب على تقدير الصحة بجوابين: أحدهما: أن يكون المعنى: كيف أراه وحجابه النور، فالنور مانع، والثاني: أن أبا ذر أسلم قديماً، ثم قديم بعد الخندق، فيحتمل أن يكون سأل رسول الله ﷺ - قبل المعراج، فأخبره أن النور يمنع من رؤيته، وقد قال بعد المعراج: "رأيت ربّي".^(٥)

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (١/ ٤٠٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه» (١/ ١٦١ ح ١٧٨).

(٣) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥١٠).

(٤) الجامع لعلم الإمام أحمد - علل الحديث (١٤/ ٥٣).

(٥) جامع المسانيد لابن الجوزي (٢/ ٢٢٢).

كما استدل أصحاب هذا القول بأن المقصود بالمرئي هو جبريل عليه السلام، وذلك بما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن الشيباني، قال: سألت زر بن حبیش، عن قول الله ﷻ: { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ } [النجم: ٩]، قال: أخبرني ابن مسعود، «أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»^(١)، وبما رواه أيضاً عن أبي هريرة، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ} [النجم: ١٣]، قال: «رأى جبريل»^(٢)، وفي كلام الدارمي ما يشير إلى أن امتناع الرؤية هو من الأمور التي أجمعت عليها الأمة، حيث جاءت عبارته: "وأنتم وجميع الأمة تقولون به: إنه لم ير، ولا يرى في الدنيا".^(٣)

وقد عدد القاضي عياض أصحاب هذا الرأي من الأمة فقال: "وهو المشهور عن ابن مسعود ومثله عن أبي هريرة أنه قال: إنما رأى جبريل واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين"^(٤)، ومن استدلالهم على هذا القول أن المرئي هو أمين الوحي هو أنه مذكور على أسنة كثير من المفسرين، فقد نص على ذلك السمرقندي والثعلبي والواحي وابن عطية والشوكاني^(٥)، وقال الحافظ ابن كثير في قوله: { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ } [النجم: ١٣] عن مجاهد قال: "رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، وغيرهم".^(٦)

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ} (١/ ١٥٨ ح ١٧٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ } [النجم: ١٣]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/ ١٥٨ ح ١٧٥).

(٣) الرد على الجهمية للدارمي (ص: ١٢٤).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/ ١٩٥).

(٥) بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ٣٦٠)، الكشف والبيان للثعلبي (٩/ ١٤٢)، التفسير البسيط للواحي (٢١/ ٢٩)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ١٩٨)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٢٨).

(٦) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٣).

القول الثالث: أنه ﷺ رآه بقلبه: واستدل أصحاب هذا القول بما جاء عن أبي ذرٍّ قال: «رَأَاهُ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِهِ»^(١)، وبما رواه الإمام مسلم عن عطاء، عن ابن عباس، قال: «رَأَاهُ بِقَلْبِهِ»^(٢)، وعنه في رواية أخرى عن أبي العالية أنه قال: { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } [النجم: ١١] { وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى } [النجم: ١٣]، قال: «رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ»^(٣).

ومن ذهب إلى هذا القول من العلماء فطريقتهم الجمع بين رؤية البصر عن ابن عباس، ونفيها عن أم المؤمنين، فالروايات المختلفة عن ابن عباس في رؤية البصر أو القلب من ناحية وبين انكار سيدتنا عائشة من ناحية أخرى يشير إلى أنه يمكن حمل اختلاف ابن عباس على الرؤية القلبية، وأن إنكار أم المؤمنين محمول على رؤية البصر، فقد قال الحافظ ابن حجر بعد سردة لروايات ابن عباس رضي الله عنهما: "على هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام"^(٤)، وقال الألوسي: "جمع بعضهم بين قولي ابن عباس وعائشة بأن قول عائشة محمول على نفي رؤيته تعالى في نوره الذي هو نوره المنعوت بأنه لا يقوم له بصر، وقول ابن عباس محمول على ثبوت رؤيته تعالى في نوره الذي لا يذهب بالأبصار"^(٥).

(١) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥١٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: { وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى } [النجم: ١٣]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/ ١٥٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: { وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى } [النجم: ١٣]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/ ١٥٨).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٠٨).

(٥) روح المعاني للألوسي (١٤/ ٥٣).

القول الرابع: التوقف: ومن العلماء من لم يقل بثبوتها أو نفيها بل توقف في هذه المسألة، وقد نسب القاضي عياض هذا القول لسعيد بن جبير الذي قال: "لا أقول رآه ولا لم يره"،^(١) وعزاه السيوطي لعبد بن حميد^(٢)، كما ذكر ابن جرير الطبري أقوال الصحابة والتابعين في المرئي هل هو رب العزة أم الأمين جبريل دون أن يرجح بين تلك الأقوال مما يشير إلى توقفه في هذا القول^(٣)، كما رجح القرطبي هذا الرأي بقوله: "وذهبت طائفة من المشايخ إلى الوقف، وقالوا: ليس عليه قاطع نفيًا ولا إثباتًا، ولكنه جازع عقلاً، وهذا هو الصحيح؛ إذ رؤية الله تعالى جائزة كما دلّت عليها الأدلة العقلية والنقلية، فأما العقلية، فتعرف في علم الكلام، وأما النقلية فمنها سؤال موسى رؤية ربه، ووجه التمسك بذلك علم موسى بجواز ذلك، ولو علم استحالة ذلك، لما سأل، ومحال أن يجهل موسى جواز ذلك؛ إذ يلزم منه أن يكون مع علو منصبه في النبوة، وانتهائه إلى أن يصطفيه الله على الناس، وأن يُسمعه كلامه بلا واسطة، جاهلاً بما يجب لله تعالى ويستحيل عليه ويجوز، ومجوز هذا كافر".^(٤)

قلت: وربما توقف بعض العلماء في هذا لعدم تعلقه بأمر الإيمان فثبوته أو نفيه لا يقدر في إيمان العبد.

ومن خلال ما سبق يمكن القول بما يلي: ثبت من خلال القرآن الكريم أن الكليم طلب رؤية الكريم، وأما الحبيب فهو الذي طُلب للقاء تشريفاً وتكريماً له، وهو ما حدث في رحلة الإسراء والمعراج، ومن خلال تفسير الصحابة والتابعين لما جاء في

(١) الشفا للقاضي عياض (١ / ١٩٧).

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٧ / ٦٤٨).

(٣) جامع البيان للطبري (٢٢ / ٥٠٧ : ٥٢١).

(٤) المفهم للقرطبي (١ / ٤٠٢).

سورة النجم مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: ١٣]، فقد وقع الاختلاف هل رأى الحبيب حبيبه أم لا كما سبق بيانه، وأرى والله أعلم أن الحبيب قد رأى حبيبه رؤية بصرية لا زيف فيها، فهذا هو الهدف من الرحلة المباركة، فكيف يُطلب للقاء ولا يرى حبيبه؟ وإذا لم يكن ثمة لقاء ورؤية لتكفل الأمين جبريل بالبلاغ، وكيف يتم إنكارها وقد طلبها الكليم، فهذا دليل على جوازها عقلاً ونقلاً.

فالرؤية الممتنعة للبشر في الدنيا هي نتيجة قصور في أبصارهم، فإذا ما انتفى هذا السبب تمت الرؤية في الجنة للمؤمنين، فإذا ثبت ذلك فما المانع من تجهيز النبي مادياً وروحياً ليكون مستعداً للقاء ورؤية الله تعالى، وهذا مثل ما يليق به الله تعالى في أبصار أوليائه لينعموا برؤية النبي في اليقظة، فإذا ما تم ذلك فما وجه عدم وقوعه مع النبي لرؤية الله تعالى؛ إذ الرحلة من أولها لآخرها خارجة عن قدرة البشر إلى القدرة الإلهية التي لا حدود لها.

أما ما ورد من اختلاف الصحابة في الآية فالقول فيه لابن عباس رضى الله عنهما، فهو أعلم بكتاب الله من غيره، وكيف لا يكون وهو الذي دعا له الرسول الكريم بفهم ما جاء في كتاب الله، وفائدة ظهور ووقوع هذا الاختلاف من الصحابة الكرام بعد انتقال الحبيب إلى محبوبه رحمة الله بحبيبه وأمه لئلا تكون فتنة فيقولون كما قالت بنو إسرائيل: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [النساء: ١٥٣]، وإذا ما صح من أقوال من امتناع الرؤية لأن المرئي هو جبريل، فهذا ليس دليلاً على الامتناع فأقوال الصحابة أثبتت رؤية الأمين، ولم تنف رؤية الكريم.

المبحث الرابع

نفي الخزي عنه ﷺ

من الأمور المهمة التي يحرص عليها كل شخص أن ينظر إليه الناس بعين الإعظام والإكبار لا بعين الذل والاحتقار، ومادة "خزي" قال عنها الراغب في مفرداته: "خَزِيَ الرَّجُلُ: لحقه انكسار، إمّا من نفسه، وإمّا من غيره، فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط، ومصدره الخَزَايَة، ورجل خَزَيَان، وامرأة خَزَيَى وجمعه خَزَايَا، والذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخَزْيُ".^(١)

والجزء الأخير من كلام الراغب وهو ما يلحقه الشخص من غيره هو الذي طلب نفيه، ودعا بالنجاة منه الخليل إبراهيم عليه السلام يوم القيامة، وذلك كما قال تعالى: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} [الشعراء: ٨٧]، فالنظر إلى الآخرة هو الأهم بالنسبة للأنبياء، وما قبلها من الدنيا لا اعتبار لها عندهم، فالانكسار والافتقار مطلوب من العبد في الدنيا، وإن لحقه شيء من الخزي عند الناس في الدنيا فلا قيمة له إذا كان العبد عزيزاً عند الله.

هذا هو الظاهر من دعاء الخليل وهو ألا يلحقه ذل واحتقار وانكسار في الآخرة، لكن الأمر مختلف عند الإمام الماتريدي الذي قال: "قال أهل التأويل: (وَلَا تُخْزِنِي) أي: لا تعذبني يوم يبعثون، وكأن الإخزاء هو العذاب الذي يهتك الستر على صاحبه، فسأله ألا يهتك الستر عليه؛ لما خاف أن كان منه ما يهتك الستر عليه، فسأل ربه ذلك؛ إذ العصمة لا ترفع عن أصحابها الخوف، بل كلما عظمت العصمة كان الخوف أشد؛ لأن الأنبياء - صلوات الله عليهم - كان خوفهم أشد على دينهم وأنفسهم من غيرهم، ثم الأمثل فالأمثل، هم كذلك أشد خوفاً ممن هو دونهم؛ ألا ترى

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٨١).

إلى قول إبراهيم حيث قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]، وقال يوسف: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]".^(١)

فظهر من كلام الماتريدي أن الخزي بمعنى العذاب، وبداية كلامه نقلاً عن أهل التأويل إشارة إلى الإجماع في تفسير هذا اللفظ، أو على الأقل قول أكثر المفسرين، وبهذا الدعاء يظهر شأن الأنبياء عليهم السلام في أنهم مفتقرون إلى الله تعالى، وأنه مهما بلغت عصمتهم أو مكانتهم عند الله فلا ملجأ منه إلا إليه فهو تعالى لا يؤمن مكره، أو المراد منه تعليم العباد، وصدر منه ﷺ عن طريق البلاغ.

أو يكون المراد من الدعاء: الخزي على ظاهره من الفضيحة والهوان، ولكن بما يلحقه الإنسان بسبب قرابته، ويكون المعنى: ولا تخزني في أبي، وهذا مأخوذ من سياق الآيات، فقد قال البقاعي: "ولما دعا لنفسه، ثنى بأحق الخلق ببره فقال: {واغفر لأبي} ثم علل دعاءه بقوله: {إنه كان} في أيام حياته {من الضالين} والظاهر أن هذا كان قبل معرفته بتأييد شقائه، ولذلك قال: {ولا تخزني} أي: تهني بموته على ما يوجب دخوله النار ولا بغير ذلك"^(٢)، ويؤيد هذا القول ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرٌ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خَزْيٍ آخَرٍ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِدِيخٍ^(٣) مُلْتَطَخٍ،

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٨/ ٦٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٤/ ٥٦).

(٣) الذبيح: ذكر الضباع، والأنثى ذبيخة، وأراد بالتلطخ التلطخ برجيعه، أو بالطين. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ". (١)

وظاهر هذا الحديث أن الله تعالى لم يستجب دعاء خليله إبراهيم، وهذا ما تساءل عنه الكرمانى وأجاب عنه بقوله: "فإن قلت: إذا أدخل الله أباه النار فقد أخزاه لقوله تعالى: {إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} [آل عمران: ١٩٢] وخزي الوالد خزي الولد فيلزم الخلف في الوعد وأنه محال. قلت: لو لم يدخل النار لزم الخلف في الوعيد وهذا هو المراد قوله حرم الجنة على الكافرين وقد تقدم في كتاب الأنبياء أنه يمسح إلى صورة ذبيح بكسر المعجمة الأولى وسكون التحتانية أي: ضبع ويلقى في النار حيث لا تبقى له صورته التي هي سبب الخزي فهو عمل بالوعد والوعيد كليهما، وقد يجاب بأن الوعد كان مشروطاً بالإيمان كما أن الاستغفار له كان عن موعدة وعدّها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه" (٢)، فتبين مما سبق أن الله لم يخزه عليه السلام، فلو وضع آزر في النار بصورته الحقيقية للزم الخزي، أو لو كان مؤمناً وأدخل النار لكان خزياً.

فضل الله على الحبيب بنفي الخزي عنه: ربما طال الحديث عن معنى دعاء الخليل ليظهر فضل النبي ﷺ في أن الله تعالى قد منّ عليه بنفي الخزي عنه دون طلب منه، فقد قال تعالى: {لَيَأْتِيَنَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحریم: ٨]، فقد جاء عند مقاتل والواحدي

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}

[النساء: ١٢٥] (٤/ ١٣٩ ح ٣٣٥٠).

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرمانى (١٨/ ٣٣).

والبغوي أن نفي الخزي هو نفي العذاب عن النبي ومن آمن معه^(١)، وقال الزمخشري: "تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق، واستحمام إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم"^(٢)، والأقرب عندي ما عبر عنه القشيري بقوله: "لا يخزي الله النبي بترك شفاعة، والذين آمنوا معه بافتضاحهم بعد ما قبل فيهم شفاعة".^(٣)

وببقي السؤال هل الواو في: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [التحريم: ٨] عاطفه فيشترك المؤمنون في نفي الخزي أم هي استئنافية فيبقي النفي من خصوصياته ﷺ؟ فالواو تحتل هذا وذاك كما قال ابن عطية: "الخزي المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى نقصه، أو سوء منزلته، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} يحتمل أن يكون معطوفاً على النبي فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أن يكون ابتداءً، ونورهم يسعى جملة هي خبره، ويبقى النبي ﷺ مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يُخزى".^(٤)

والظاهر من خلال سياق الآيات التي تتحدث عن الإقبال إلى الله تعالى بالتوبة النصوح أن النفي يجتمع فيه النبي والمؤمنون، فالخزي هو كل ما يسوء النفس من فوات خير، أو فقدان حبيب ولا أشد خزيًا من أن يفقد الحبيب حبيبه في الآخرة، فمن فرط رحمته ﷺ الحرص على إيمان أمته به ويدل على ذلك الحرص ما كان يصيبه من أذى وهم وحزن بسبب الإعراض عنه في الدنيا كما قال تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، والدلالة على ذلك الحرص ما أخرجه

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤ / ٣٧٨)، التفسير الوسيط (٤ / ٣٢٢) معالم التنزيل (٥ / ١٢٣).

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل للزمخشري (٤ / ٥٧٠).

(٣) لطائف الإشارات للقشيري (٣ / ٦٠٨).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٥ / ٣٣٤).

البخاري عن أنسٍ ؓ ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلَمَ» ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١) ، كما أنه لا يرضى في الآخرة إلا بدخول جميع أمته الجنة فقد أخرج البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ؓ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ ، وَقَالَ عِيسَى ﷺ: {إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨] ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» ، وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَرَبِّكَ أَعْلَمُ ، فَسَلْهُ مَا يُنْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ: " يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ ، وَلَا نَسُوءُكَ"^(٢) ، فَبَكَوْهُ ﷺ شَفَقَةً عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْعَذَابِ فَأَخْبَرَهُ رَبُّهُ بِأَنَّهُ سِيرَضِيهِ وَلَنْ يَخْزِيهِ فِي أُمَّتِهِ بَلْ سَيَنْجِيهِمْ جَمِيعًا ؛ وَلِذَا نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: "وَاللَّهُ مَا يَرْضَى مُحَمَّدٌ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي النَّارِ"^(٣) ، أَمَا نَفِي الْخَزْيِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ اجْتِمَاعُهُمْ مَعَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَذَوِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١].

الحكمة من هذا الفضل: وقد ذكر بعض العلماء أن هذا الفضل العظيم من الله تعالى على رسول الله ﷺ يرجع إلى التفرغ الكامل لأُمَّتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الشَّاقِّ ، فَقَدْ ذَكَرَ

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام (٢/ ٩٤ ح ١٣٥٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأُمَّتِهِ ، وبكائه شفقة عليهم (١/ ١٩١ ح ٢٠٢).

(٣) المفهم للقرطبي (١/ ٤٥٥).

الصالحى أن من أسمائه ﷺ «الآمن»، وذكر الحكمة من هذه التسمية بقوله: "وسمي به ﷺ لأن الله تعالى آمنه يوم القيامة فقال تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ} والحكمة في ذلك أن يفرغ إلى شفاعته أمته إذا قال سائر النبيين: نفسي نفسي، ولو لم يؤمنه كان مشغولاً بغيره من الأنبياء"^(١)، فالذي يظهر من ذلك أن النبي ﷺ قد آمنه ربه من كل ما يسوءه في الآخرة فهو صاحب المقام المحمود، وهو في سعادة بنجاة أمته يوم القيامة، وهو صاحب الشفاعة العظمى، وهو الذي نفي عنه ربه الخزي والسوء من غير أن يطلب لأنه هو المطلوب، ومن ذلك ما أشار إليه الملا علي القاري في بيان التفرقة بين دعاء الخليل وفضل الحبيب في شرحه للشفاء قوله: "وَالْخَلِيلُ قَالَ: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} [الشُعْرَاء: ٨٧] أي لكونه طالبا في الطريق (وَالْحَبِيبُ قِيلَ لَهُ {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ} [التحریم: ٨] أي لأنه مطلوب في مقام التحقيق وهذا معنى في التوفيق هو الذي بينه المصنف بقوله (فابتدئ) أي الحبيب (بالبشارة) أي بنفي الخزي من يقال الفضاحة عنه (قبل السؤال) أي بحصول المنال في المال بخلاف الخليل حيث وقع منه السؤال ولم يقع جواب حصوله لا في الحال ولا في الاستقبال فيكون بين الخوف والرجاء في تحسين المال"^(٢) فظهر من ذلك الفرق بين الطالب والمطلوب، فمن طلب الله سألته ودعاه، ومن طلبه الله أعطاه دون أن يرفع يده.

(١) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحى (١/ ٤٣٤).

(٢) شرح الشفا للملا علي القاري (١/ ٤٦١).

المبحث الخامس

تيسير أمره ﷺ

إذا كُلف العبد بأمر من الأمور وأحس العبد بمشقة التكليف فما عليه سوى الالتجاء إلى مُيسر الأمور ومدير الأيام والشهور، وهذا ما طلبه الكليم من الكريم حينما قال فيما حكاه الحق تبارك وتعالى عنه: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} [طه: ٢٦]، ويظهر من سياق آيات سورة طه أن الكليم يريد تيسير أمره الخاص بمشاق الدعوة التي كُلف بها في دعوة الطاغية فرعون، وهو أمر صعب عسير فأراد الكليم التيسير لهذا الأمر الشاق فلجأ إلى العليم الخلاق، وهذا ما عليه المفسرون.^(١)

ولما أظهر الكليم حاجته للكريم، وأظهر ضعفه ولجأ إلى صاحب الحول والقوة تولاه العلي القدير بالإجابة والتيسير فقال تعالى: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه: ٣٦]، وتظهر إجابة الكريم للكليم في إجاباته القاطعة والحاسمة في ردوده على أسئلة الطاغية والتي منها: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى} (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى { [طه: ٤٩، ٥٠] فظهر شرح الصدر وتيسير الأمر بأن الجواب على أول سؤال للطاغية كان كافياً لنسف وهدم ما يدعيه من الألوهية؛ لأن التوفيق والتيسير كان مع الكليم حين أخبره بأن المعبود بحق هو من يملك كل شيء وله العطاء المطلق، والمتحكم في هداية الخلق إلى الطريق المستقيم، وباستجابة دعاء الكليم ننقل إلى الحديث إلى ما منَّ به المنعم على خير خلقه في قوله تعالى: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى: ٨].

(١) ينظر: جامع البيان (١٨ / ٢٩٩)، الهداية الى بلوغ النهاية (٧ / ٤٦٣٠)، التفسير البسيط (١٤ / ٣٨٨)، معالم التنزيل (٣ / ٢٦٠)، تفسير القرطبي (١١ / ١٩٢).

سبب تيسير الأمور: يتجلى هذا الأمر في أوضح صورة من خلال بيان ما تميز به كل نبي، فموسى عليه السلام هو الكليم، ورسول الله ﷺ هو الحبيب، فكليمك هو من "يُكَلِّمُكَ وَتُكَلِّمُهُ"^(١)، والحب عبّر عنه الراغب فقال: "محبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه"^(٢)، فظهر منهما أن الكلام من الجانبين، وكذا المحبة، فلما استأنس الكليم بكلامه مع ربه أراد زيادة الكلام بطلب شرح الصدر وتيسير الأمر في أمر تبليغ الرسالة التي كلفه بها.

ولما كان الحبيب يريد زيادة القرب من حبيبه سارع إلى تلبية أمر المحبوب دون تفكير أو تردد حتى مع علمه بأن ما كُلف به أمر شاق وثقيل كما قال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥]، لكنه لم يعبأ بهذا الثقل فهرع إلى التلقي لما يوحى إليه في قوة ونشاط كما قال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]، وفي قوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى} [الأعلى: ٦] فلما كان التعجيل النبوي في التقرب من العليّ جاء العطاء الإلهي بتيسير كل عصى.

تيسير اليسرى عند المفسرين: التيسير هو تسهيل ما يصعب من الأمور، وإيجاد الوسائل التي تهوّن على النفس الشدائد التي تنقلب من عسر إلى يسر، وبالنظر في أقوال المفسرين في الآية تبين أنها ما يلي:

أولاً: أنها أعمال الخير: وهو ما عبّر عنه الطبري بقوله: "يقول تعالى ذكره: ونسهلك يا محمد لعمل الخير وهو اليسرى، واليسرى: هو الفعل من اليسر"^(٣)، وهو ما أسنده ابن أبي حاتم إلى ابن عباس رضي الله عنهما^(٤)، وللماتريدي قوله:

(١) العين للخليل بن أحمد (٥ / ٣٧٨).

(٢) المفردات للراغب (ص: ٢١٥).

(٣) جامع البيان للطبري (٢٤ / ٣٧٢).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٠ / ٣٤١٧).

ونسيرك للخير ولعمل أهل الجنة، فسميت أعمال الخير: يسرى؛ لأنها تعقب ذلك، والله أعلم".^(١)

ثانياً: تيسير الحفظ: ومن المفسرين من نظر إلى السياق في تفسير هذه البشارة النبوية مع احتمال أقوال أخرى، ومن ذلك قول السمرقندي: "ثم قال ﷺ: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} يعني: سنهون عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة، ويقال: يعني: نعينك على الطاعة"^(٢)، وكقول الثعلبي: "{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} لعمل الجنة، وقيل: هو متصل بالكلام الأول معناه: نعلم الجهر مما تقرأه يا محمد على جبريل إذا فرغ من التلاوة عليك، وما يخفى ما تقرأه في نفسك مخافة أن تنساه، ثم وعده فقال: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} أي: يهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به، وقيل: ويوفقك للشريعة اليسرى، وهي الحنفية السمحة"^(٣)، وتيسير الحفظ هو ما رجحه الفخر الرازي بقوله: "اليسرى هي أعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر، إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين فيه وجوه: أحدها: أن قوله: ونيسرك معطوف على سنقرئك وقوله: إنه يعلم الجهر وما يخفى اعتراض، والتقدير: سنقرئك فلا تنسى، ونوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر، يعني في حفظ القرآن، وثانيها: قال ابن مسعود: اليسرى الجنة، والمعنى نيسرك للعمل المؤدي إليها، وثالثها: نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به، ورابعها: نوفقك للشريعة وهي الحنفية السهلة السمحة، والوجه الأول أقرب".^(٤)

ثالثاً: تيسير جميع الأمور: أي: أن التيسير والتسهيل واقع على كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، وممن رجع هذا الوجه الإمام الشوكاني حين قال: "والأولى حمل الآية

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٠ / ٥٠٤).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (٣ / ٥٧١).

(٣) الكشف والبيان للثعلبي (١٠ / ١٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٣١ / ١٣٢).

على العموم، أي: نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك".^(١)

وهذا الوجه هو أقرب الأقوال في معنى الآية لما يلي:

أولاً: الحذف دليل على العموم، فلم ترد المنة والبشارة في حقه ﷺ مرتبطة بأمر معين؛ بل حُذفت لتذهب فيه النفس كل مذهب بما يليق بالمنعم في حق المنعم عليه، وبما يناسب جلال وعظم معاملة المحب لحبيبه.

ثانياً: تخصيصه بالوحي وحفظه وارد تفصيلاً في قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ {القيامة: ١٦ - ١٩}، وتفسير كل آية بمعنى جديد أولى من حمل أكثر من آية على نفس المعنى.

وفي المسألة لطائف منها:

أولاً: أن العبد يسأل بقدر الحاجة، والله يمتن على العباد بقدر عظمتهم: فالعبد لا يسأل إلا ما يعينه على أداء ما كُلف به؛ وذلك أن الكليم ﷺ حينما علم مشقة المهمة سأل المعين الأدوات التي تعينه على أداء مهمته فقال: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} (٢٦) وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي} (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي} (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} [طه: ٢٥ - ٢٩]، لكن الكريم حين يمتن يعطي على قدر جلاله وقدرته فقال لحبيبه بغير تخصيص: {وَنُيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى: ٨].

ثانياً: خُص جواب الكليم بقوله: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه: ٣٦]، بحرف دال على التحقيق، وهو تحقق إجابات الرسل تأييداً وإعانة لهم فيما هم مقبلون عليه من مشاق الدعوة، بينما خُص عطاء الحبيب بنون العظمة ليجتمع له

(١) فتح القدير للشوكاني (٥ / ٥١٥).

عظم الوهاب مع عظم الهبة، وقد قال الفخر الرازي: "إنما قال: ونيسرك لليسر بنون التعظيم لتكون عظمة المعطي دالة على عظمة العطاء، نظيره قوله تعالى: {إنا أنزلناه} [يوسف: ٢] {إنا نحن نزلنا الذكر} [الحجر: ٩] {إنا أعطيناك الكوثر} [الكوثر: ١] دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره، وكيف لا وقد كان صبيًا لا أب له ولا أم له نشأ في قوم جهال، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين".^(١)

ثالثاً: في تقديم ضمير الخطاب على اليسرى دلالة على اختصاصها به ﷺ، وأن ما يقوم به من أفعال تكون ذليلة له منقادة لأمره، وأن من أراد التيسير في أموره فليس عليه إلا السير على خطى من خصه الله بذلك وهو الرسول ﷺ، وقد قال العلامة أبو السعود: "وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما في قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسر والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها كما في قوله عليه الصلاة والسلام: اعملوا فكل ميسر لما خلق له"^(٢) أي: نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداءً وهدايةً فيندرج فيه تيسير طريق تلقي الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى:

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٣١ / ١٣٢)

(٢) صحيح البخاري (٦ / ١٧١ ح ٤٩٤٩)، كتاب تفسير القرآن، باب: {فسنيسره للعسرى} [الليل:

١٠]، صحيح مسلم (٤ / ٢٠٣٩ ح ٢٦٤٧)، كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه.

{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى: ٩].^(١)

رابعاً: أنعم الله تعالى على الأمة المحمدية بتيسير الأمور؛ لكن هذا التيسير لا يتحقق إلا بشروط منها تقوى الله تعالى كما قال ﷺ: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} [الطلاق: ٤]، ومشروط كذلك بالعطاء والتصديق التام لكل ما جاء به الله ورسوله كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٥ - ٧]، لكنه في حق الحبيب لا يتعلق بشيء وإنما هو عطاء إلهي امتن به الله تعالى على الجناب المحمدي.

خامساً: لا طاقة للعبد بأداء ما كُلف به من عبادات وغيرها من أمور إلا بالاستعانة بالله تعالى، فمن نعم الله تعالى التوفيق لأداء الصلاة، فالبعض لا يوفق لأدائها لثقلها على النفس كما قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥].

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٩/ ١٤٥).

المبحث السادس

شرح صدره ﷺ

تجلى فضل الحبيب محمد ﷺ ومكانته عند ربه أن الحق جل في علاه قد شرح له صدره دون طلب منه، أما غيره من الأنبياء فقد طلب هذا الأمر صراحة من رب العزة جل جلاله، فقد حكى المولى ﷺ عن موسى الكليم أنه دعا ربه فقال: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه: ٢٥] فقد سأل الكليم من الكريم أن يمدّه من عنده بأن يزيل ما في قلبه من هواجس قد تعيقه عن تنفيذ مهمته التي كُلف بها، وكانت حيثية هذا الدعاء ما ورد في التكليف الإلهي للكليم ﷺ الوارد في قوله: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} [طه: ٢٤] ، وقد بينّ الحافظ ابن كثير رحمه الله أسباب هذا السؤال بقوله: " هذا سؤال من موسى ﷺ، لربه ﷻ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدّهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلّغهم تمردًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره" (١)، وفي هذا السؤال من الكليم للكريم تعليم منه للمكلفين بطلب المعونة من الله تعالى عند القيام بواجب تنفيذ التكليف الشاقّة، وأنها تهون وتصبح ميسرة بعد الاستعانة بالمُعِين، ثم تكون الإجابة كما قال تعالى: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه: ٣٦].

شرح صدره ﷺ وسببه: هذا ما كان من إجابة الكريم للكليم، أمّا ما كان بين الحبيب ومحبوبه قال عنه تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١] حيث صُدّرت السورة الكريمة بالاستفهام الذي يعقبه النفي المبيّن فضل الله وإنعامه على من نزل عليه كلامه، فقد قال الإمام الزمخشري في تقرير هذا الفضل: " استفهم عن انتفاء

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨٢) .

الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكانه قيل: شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه: {وضعنا} اعتباراً للمعنى".^(١)

والشرح المذكور في هذا الفضل مختلف فيه بين العلماء هل هو شرح حسي أم معنوي كما قال ابن عطية: "ذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وقال ابن عباس وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراء إذ التشريح شق اللحم".^(٢)

وقد أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره -سبب هذا الفضل العظيم- عن ابن عباس أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، قُلْتُ: قَدْ كَانَتْ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتُ لَهُ الرِّيحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ»^(٣)، وفي هذا الأثر فوائد عظيمة منها: كمال أدبه ﷺ مع من أدبه وجمّله، وتعليم منه لأمته بمحاسبة النفس ومراجعتها إذا سألت ما ليس لها، وتعليم منه ﷺ أيضاً الكف عن النظر إلى نعم الآخرين، وأن هناك نعماً عظيمة لا يشعر بها العبد إلا إذا قرّر بها، وفيه فضل الله العظيم على حبيبه محمد ﷺ بالنعم دون طلب منه، وفيه أنه على أي معنى كان الشرح حسياً أو معنوياً فإن أفضل النعم ما كان خاصاً بالقلب من هداية للإسلام، ونزع للأحقاد؛ إذ هو محل نظر الرب لا الأعمال التي تبهر الجمهور.

(١) الكشف عن حقائق التنزيل للزمخشري (٤ / ٧٧٠).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٥ / ٤٩٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٠ / ٣٤٤٥).

وللتفرقة بين سؤال موسى الكريم وامتنان الله تعالى على من سماه مولاه
الروؤف الرحيم أقول: السبب في دعاء الكليم بشره ما ورد في أكثر من آية
في قصته في القرآن الكريم، فقد قال تعالى: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ
أَنْ يَطْغَى} [طه: ٤٥]، {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا
يُنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}
[الشعراء: ١٢ - ١٤]، {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣)
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُكَذِّبُونِ} [القصص: ٣٣، ٣٤]، وما عبّر عنه ظاهر القرآن قد يُظن من البعض أن
الكليم طلب الشرح من الكريم خوفاً على نفسه، أو أن خوفه من فرعون يطغى على
خوفه من ربه -حاشاه ذلك وجميع الأنبياء-، وإنما هو شعور طبيعي نابع من
مقدمات رأى في ظنه -عليه السلام- أنها قد تعيق الأداء الأمثل للمهمة التي كُلِّف بها من
قبل المولى ﷺ، فلهذا طلب العون من الله ﷻ، أما الحبيب المحبوب فلم يطلب
انشراح الصدر لخوفه من قومه فقد كان بينهم قبل البعثة يلقبونه بالصادق الأمين،
ولم تكن هناك مقدمات شخصية تعيق أداء مهمته ﷺ كما يجب، وإنما كان العائق
لتأخرهم عن الإيمان به هو العناد والكبر، وكيف اصطفاه تعالى للرسالة من بينهم،
وذلك كما قال تعالى: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ
الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: ٣٣].

المبحث السابع

رفع ذكره ﷺ

مما لا شك فيه أن دوام الثناء على شخص ما دليل على تقواه وصلاحه، ونقاء ظاهره وباطنه مع الله تعالى، أما إذا كان الصلاح والتقوى في الظاهر فلن يدوم الثناء طويلاً، ومما جاء في القرآن الكريم حكاية عن الخليل إبراهيم عليه السلام ما قاله تعالى: {وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: ٨٤]، فالخليل عليه السلام طلب من الله تعالى أن يجعل الألسنة مداومة على ثنائه، وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وفي هذا الشأن يقول ابن عطية في معنى الآية: "و«لسان الصدق» في الآخرين هو الثناء وَخُلِدَ المكانة بإجماع من المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، فكل ملة تتمسك به وتعظمه وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ".^(١)

والسبب في هذا الدعاء من الخليل عليه السلام ليس معناه مجرد التباهي به والتفاخر به على الناس أو على الأنبياء، وإنما هي نية صادقة عبر عنها السمرقندي بقوله: "إنما أراد بالثناء الحسن، لكي يقتدوا به، فيكون له مثل أجر من اقتدى به"^(٢)، فالعاقل من يعمل لله أولاً، ثم ينشر ما يعمل، أو ما يعلمه للناس ليتأسى به الناس من بعده، ففضل الله عظيم، فمن يبخل بعلمه على الناس ليستأثر بفضل الله دون الناس فقد حقر ما عند الله من جود وكرم، وهذا ما يقال عن حكمة جواز الصدقة في السر والعلن فقد قال تعالى: {إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: ٢٧١]، فهي مقبولة عند الله في العلن للاقتداء، وأفضل في الخفاء لمن خاف على نفسه الرياء.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٢٣٥).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ٥٥٧).

ومن مظاهر استجابة الله لدعاء خليله ما يردده المسلمون في صلواتهم عشية وضحاها، فقد قال القرطبي في هذا الأمر: "وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات".^(١)

وفي الآية صورة بلاغية وهو التعبير عن الشيء بآلته، فاللسان هو الآلة والأداة التي يُعبر بها عن القول، قال ابن قتيبة: "ومن الاستعارة"^(٢): اللسان يوضع موضع القول، لأنّ القول يكون بها، قال الله ﷻ، حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {وَجَعَلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: ٨٤].^(٣)

وما سبق كان عن دعاء الخليل واستجابة الله تعالى له، أمّا ما امتن به الله على حبيبه فهو ما ذكره تعالى بقوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: ٤]، والسبب في هذا الرفع هو وفاة أولاد النبي ﷺ الذكور في حياته صغاراً كما قال ابن قتيبة في غريبه عند الحديث عن غرائب سورة الكوثر: "وكانت قريش قالت: 'إن محمداً لا ذَكَرَ له؛ فإذا مات: ذهب ذِكْرُهُ'؛ فأنزل الله هذا، وأنزل: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}"^(٤).

وقد انفرد ابن قتيبة بهذا الرأي، فلم أجد من تابعه من العلماء على هذا القول، فلعله خطأ من النساخ، أو رد منه بالقرآن على عدم انقطاع ذكره ﷺ لا أنه سبب لنزول آية سورة الشرح، إضافة إلى أنه لم يستند إلى دليل على قوله، والصحيح أن السبب في نزول سورة الكوثر مع غيرها من آيات هو ما أخرجه النسائي عن ابن

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣ / ١١٣).

(٢) هي: تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقام مقامه، ورجع بعض المثل إليها. انظر: البديع في البديع لابن المعتز (ص: ٢٣).

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ٩٥).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٥٤١).

عباس رضى الله عنهما أنه قال: " لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ، قَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَنْتَ خَيْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَسَيِّدُهُمْ، قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الْمُنْبِتِ^(١) مِنْ قَوْمِهِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ - يَعْنِي: أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السَّدَانَةِ^(٢) - قَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ {إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، وَنَزَلَتْ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} [النساء: ٥١] إِلَى قَوْلِهِ: {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [النساء: ٥٢]."^(٣)

معنى رفع الذكر:

هو اقتران ذكره ﷺ بذكر الله تعالى، فلا يُذكر الله تعالى إلا ويُذكر معه حبيبه، وهو قول جمع من المفسرين عبر عن هذا الرأي الواحدي بقوله: "قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} قال جماعة المفسرين: لَا ذُكِرْتُ، إِلَّا ذُكِرْتُ مَعِيَ"^(٤)، والسبب في الاجتماع على هذا التفسير أنه من قول أعلم الخلق بكلام خالق الخلق، فقد عبر النبي ﷺ عن تفسير تلك الآية بما أخرج به ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: «كَيْفَ

(١) الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ٩٣).

(٢) عن مادة: سدن قال ابن الأثير: "فيه ذكر «سدانة الكعبة» هي خدمتها وتولي أمرها، وفتح

بابها وإغلاقه يقال سدن يسدن فهو سادن، والجمع سدنة. انظر: المرجع السابق (٢/ ٣٥٥)

(٣) السنن الكبرى للنسائي، كتاب التفسير، باب سورة الكوثر، قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}

[الكوثر: ٣] (١٠/ ٣٤٧ ح ١١٦٤٣)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه يونس بن سليمان

الجمال ولم أعرفه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح". انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٦).

(٤) التفسير البسيط للواحدى (٢٤/ ١٢٨).

رَفَعْتَ ذِكْرَكَ؟»، قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «إِذَا ذُكِّرْتَ ذُكِّرْتَ مَعِيَ»^(١).

وإطلاق الحديث دليل صريح على العموم في كل الأحوال والأزمان، فلا يذكر الله تعالى إلا ويذكر حبيبه معه، وقد أنكر ابن عطية على من فسر الحديث بالأذان والخطب بدعوى أن الفعل للزمن الماضي، وهما شرعهما الله تعالى في المدينة، حيث يقول: "قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} معناه، نوهنا باسمك، وزهنا به كل مذهب في الأرض، وهذا ورسول الله بمكة، وقال أبو سعيد الخدري والحسن ومجاهد وقتادة: معنى قوله {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} أي: قرنا اسمك باسمنا في الأذان وخطب، وروي في هذا الحديث «إن الله تعالى قال: إذا ذكرت معي»، وهذا متجه إلى أن الآية نزلت بمكة قديماً، والأذان شرع بالمدينة^(٢).

ويجاب عن قول ابن عطية بأن الأذان من جملة اقتران اسم النبي بالله تعالى، إضافة إلى أن ورود الفعل بصيغة الزمن الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، كما يقول البسيلى: "ويُجاب بأن صيغة الماضي للتحقيق، مثل {آتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]"^(٣).

كما ظهر من الإبهام في الحديث أن رفع الذكر يتناول عدة أمور تشير إلى قدر ومكانة النبي ﷺ عند ربه، وليس فيما قاله العلماء تجاوزاً لقول النبي في الآية، وإنما هو تفسير لقول النبي في الآية، وقد بين الشنقيطي في تفسيره ما تشير إليه

(١) صحيح ابن حبان، كتاب الزكاة، باب ذكر الإخبار عن إباحة تعداد النعم للمنع على المنعم عليه في الدنيا (٨ / ١٧٥ ح ٣٣٨٢)، وقال ابن الملقن: "رَوَاهُ ابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ دَرَّاجَ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بِهِ وَدَرَّاجَ هَذَا ضَعُفُوهُ وَوَقَّعَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَابْنُ حَبَانَ وَحَسَنَ لَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَ أَيْضًا وَادَّعَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ الْإِتِّفَاقَ عَلَى صَدَقِهِ". تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج (١ / ٣٠٦).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٥ / ٤٩٧).

(٣) نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد للبسيلى (٣ / ٦٣٣).

الآية فيقول: "قَوْلُهُ: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً، فاختلف في المراد به أيضاً، فقيل: هو حسي في الأذان والإقامة، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة، واستدلوا لذلك بالواقع فعلاً، واستشهدوا بقول حسان - ؓ - وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية:

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ *** مِّنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَالَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ *** إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنِ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِّنَ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ *** فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(١)

ومن رفع الذكر معنى، أي: من الرفع، ذكره - ؓ - في كتب الأنبياء قبله، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه، وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكراً له ولقومه، في قوله تعالى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ {الزخرف: ٤٣ - ٤٤} ، ومعلوم أن ذكره قومه ذكر له، كما قال الشاعر:

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذُرَى رُتَبٍ *** كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ^(٢)
فتبين أن رفع ذكره - ؓ -، إنما هو عن طريق الوحي، سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ [المائدة/٤١] ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ [الأنفال/٦٤] ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [المدثر/١] ، والتصريح باسمه في مقام الرسالة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ [الفتح/٢٩] ، أو كان في فروع التشريع، كما تقدم في أذان، وإقامة، وتشهد، وخطب، وصلاة عليه ؓ والله تعالى أعلم^(٣)، فنبت من عموم رفع الذكر الوارد في القرآن الكريم الفرق بين الخلّة والمحبة فالخليل هو من يسأل فيعطى،

(١) ديوان حسان بن ثابت (ص: ٤٧).

(٢) ديوان ابن الرومي (٣/ ٣٧٣).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٨/ ٥٧٨).

والحبيب هو من يُعطى قبل أن يسأل، قال القاضي عياض: "الخليل قال: {وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}، والحبيب قيل له: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} أعطي بلا سؤال".^(١)

وفي النهاية ثبت أن هذا الامتنان والفضل لا سبب له إلا محبة الله تعالى، فدوام الذكر الجميل على الألسنة لا علاقة له بالولد من عدمه-كما جاء في سبب نزول سورة الكوثر-، وإنما هو تكريم وامتنان لما يقدمه الإنسان في حياته، ولا يوجد أعظم وأكرم مما قدمه النبي ﷺ للأمة المحمدية بل ولل البشرية أجمع كيف لا وقد كانت بعثته رحمة للعالمين كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، فمن كانت هذه مهمته علا ذكره وانتشر على غيره من المخلوقات والبشر.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/ ٢١٥).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله ترفع الدرجات وتغفر الخطايا والزلات، والصلاة والسلام على رسول الله خير البرايا والمخلوقات، وعلى آله وصحبه العدول الثقات، وبعد: فبعد انتهاء هذه الرحلة العلمية الشيقة حول فضائل النبي العدنان في آيات القرآن تبين لي **عدة نتائج هي:**

أولاً: أثبتت آيات القرآن الكريم وسنة خاتم النبيين وجود التفاضل بين مخلوقات الله تبارك وتعالى، وأفضل الخلق هو رسول الله ﷺ.

ثانياً: لا تعارض بين آيات الكتاب والسنة في أمر التفاضل بين الأنبياء فالقرآن أثبتته، والسنة نهت عنه النهي الذي يؤدي إلى ما يوهم النقص أو يبعث على انتشار التعصب الأعمى والفتن.

ثالثاً: أهمية الدعاء ومنزلته الرفيعة بين العبادات والاستعانة بالله تعالى في الأمور التي كلفنا الله بها والدعاء بتيسيرها للقيام بأدائها بالشكل الصحيح وهذا بالنسبة للظالمين في الجنات أو الهاربين من النار وما فيها من دركات، أما من أنعم الله عليهم بمعرفته وحبه فيكفيهم الانشغال بالقرآن وما فيه من ذكر وثناء عن مطامع النفس الأمارة بالسوء والفحشاء.

رابعاً: تلبية رغبات النبي ﷺ دون عناء ودعاء دليل على عظم فضله ومكانته العالية عند ربه تعالى.

خامساً: عدم الدعاء منه ﷺ دليل على كمال أدبه مع ربه ورضاه بما قسم له، وما ورد منه أو من غيره من الأنبياء فهو على سبيل التعليم.

سادساً: ارتباط أغلب الفضائل الواردة في البحث بتسليّة الرسول ﷺ وتثبيتته في وجه الشدائد التي يلاقيها من قومه.

سابعاً: نفي الخزي عنه ﷺ يوم القيامة سببه التفرغ الكامل لأُمته يوم القيامة.

وفي الختام: يطيب لي أن أوصي بمزيد من الدراسات التي تتحدث عن فضائل النبي الكريم واستدراك ما فاتني في هذا البحث، وضرورة تدريس خصائص النبي الكريم لطلاب الأزهر ليزدادوا قرباً منه وحباً له ﷺ.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل من أنزله

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستِي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٢. إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ط: دار المعرفة - بيروت.
٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٤. الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، ت: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: مقل بن هادي الوادعي، ط: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ط: دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٦. أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، ت: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، ط: جامعة أم القرى الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
٧. بحر العلوم، المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، ت: د. محمود مطرجي، ط: دار الفكر - بيروت.

٨. البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ.
٩. البديع في البديع، المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتر بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، ط: دار الجيل، الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
١٠. تأويل مشكل القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: إبراهيم شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١١. تأويلات أهل السنة، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، ت: د. مجدي باسلوم، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
١٢. تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج (على ترتيب المنهاج للنووي)، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، ت: عبد الله بن سعاد اللحاني، ط: دار حراء - مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٦ هـ.
١٣. تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة، المؤلف: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر، ت: علال عبد القادر بندويش (ماجستير)، ط: جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، الأولى: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ م.
١٤. التفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٥. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، ت: أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الثالثة - ١٤١٩ هـ.

١٦. تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت: سامي بن محمد سلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

١٧. تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط: دار الوطن، الرياض، السعودية، الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

١٨. تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، ت: عبد الله محمود شحاته، ط: دار إحياء التراث - بيروت، الأولى ١٤٢٣ هـ

١٩. التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، ت: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، ط: مكتبة الرشد - السعودية، الخامسة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٢١. جامع التحصيل في أحكام المراسيل، المؤلف: صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلاي بن عبد الله الدمشقي العلاني، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط: عالم الكتب - بيروت، الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦

٢٢. جامع المسانيد، المؤلف: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، ت: الدكتور علي حسين البواب، ط: مكتبة الرشد - الرياض، الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥
٢٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه أو صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢ هـ
٢٤. الجامع لأحكام القرآن أو تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية - القاهرة، الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م
٢٥. الجامع لعلوم الإمام أحمد - علل الحديث، الإمام: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المؤلف: إبراهيم النحاس، ط: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، الأولى، ٢٠٠٩ م
٢٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ط: دار الفكر - بيروت
٢٧. ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الثانية ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.
٢٨. ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه: عبداً. مهنا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
٢٩. الرد على الجهمية، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، ت: بدر بن عبد الله البدر، ط: دار ابن الأثير - الكويت، الثانية، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ت: علي عبد الباري عطية، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣١. سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ت: عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٣٢. سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، ت: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٣٣. السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، ت: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٤. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، ت: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، ط: دار طيبة - السعودية، الثامنة، ٢٠٠٣ م.

٣٥. شرح الشفاء، المؤلف: علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٢١ هـ.

٣٦. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى

- اليحصبي، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى، ط: دار الفكر
الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
٣٧. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد
الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت: إرشاد الحق الأثري، ط: إدارة العلوم
الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الثانية، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٣٨. العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم
الفراهيدي البصري، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط: دار
ومكتبة الهلال
٣٩. غريب القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت:
أحمد صقر، ط: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
٤٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو
الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ت: محمد
فؤاد عبد الباقي، أشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.
٤١. فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني
اليمني، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الأولى -
١٤١٤ هـ
٤٢. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: أبو
القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري جار الله، ط: دار الكتاب
العربي - بيروت، الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٤٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم
الثعلبي، أبو إسحاق، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط: دار إحياء التراث
العربي، بيروت - لبنان، الأولى ٢٠٠٢ م.

٤٤. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرمانى، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان، طبعة أولى: ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م، طبعة ثانية: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٤٥. لطائف الإشارات أو تفسير القشيري، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الثالثة
٤٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، ت: حسام الدين القدسي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
٤٧. مجمل اللغة لابن فارس، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، ت: زهير عبد المحسن سلطان، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
٤٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى - ١٤٢٢ هـ.
٤٩. المراسيل، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، ت: شكر الله نعمة الله قوجاني، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، الأولى، ١٣٩٧ هـ.
٥٠. المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٥١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٥٢. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن أو تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ت: عبد الرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٥٤. المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين - القاهرة.

٥٥. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٥٦. المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، الأولى - ١٤١٢ هـ.

٥٧. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ت: محيي الدين ديب ميسنر، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمود إبراهيم بزال، ط: دار ابن كثير، دمشق، الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٥٨. مناهج البحث العلمي، للأستاذ الدكتور: محمد سرحان علي المحمودي، الناشر: دار الكتب، صنعاء، اليمن، الطبعة: الثالثة ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م.
٥٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط: دار إحياء التراث العربي-بيروت، الثانية، ١٣٩٢هـ.
٦٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٦١. النكت على صحيح البخاري ويليهِ «التجريد على التنقيح»، المؤلف: أبو الفضل ابن حجر العسقلاني، ت: أبو الوليد هشام بن علي السعيدني، أبو تميم نادر مصطفى محمود، ط: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة، الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٦٢. نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو العباس البسيلي التونسي، ت: محمد الطبراني، ط: منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - المغرب، الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٦٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ط: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.
٦٤. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، ط: جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٦٥. الوابل الصيب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: سيد إبراهيم، ط: دار الحديث - القاهرة، الثالثة، ١٩٩٩ م.

٦٦. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

تم بحمد الله